قبل الرحيل "حوار العمر" مع المؤرّخ والباحث د. إبراهيم بيضون (2)

كامل جابر • فبراير 4, 2025



في الجزء الثاني من حوار "قبل الرحيل "حوار العمر" مع المؤرّخ والباحث د. إبراهيم بيضون" يتابع د. بيضون حديثه والذي ارتأينا أن نقسمه إلى قسمين عن مؤلفاته، فيستعرض حكاية كل مؤلّف وظروفه وسبب الكتابة عنه، ثم يعود إلى بنت جبيل مسقط الرأس، ومن ثم بيروت ونشاطه في المجلس الثقافي للبنان الجنوبي وعن هواياته وغيرها.

لائحة الكتب

الكتاب الثالث "الدولة العربية في أسبانية، من الفتح حتّى سقوط الخلافة"؛ كتبته بعد عودتي من رحلة إلى الأندلس، رجعت منبهرًا بهذا التراث العظيم في الأندلس، العام 1978 (عن النهضة العربية – بيروت) وطبع عدّة مرات. ثم جاء الكتاب الآخر "من دولة عمر إلى دولة عبد الملك، دراسة في تكوّن الاتّجاهات السياسية في القرن الأوّل الهجري" (عن دار النهضة العربية – 1991). وطبع ثلاث مرات. ثم كتاب ترجمة ومدخل في ذات الوقت لفان فلوتن، "السيطرة العربيّة والشيعة والإسرائيليّات في عهد بني أميّة" الطبعة رقم 1، ج. فان فلوتن (01/01/1996) كان يحتاج إلى مدخل لأن فيه مسائل كانت خاضعة للنقد في ما يتعلّق بالإسرائيليّات والحركة المهدوّية.

ثم كتاب "الحجاز والدولة الإسلاميّة، (عن دار النهضة العربيّة) الطبعة رقم 1، (01/01/1995) وهو أطروحتي في اليسوعيّة التي ظهرت عن المكتبة الجامعيّة. ثمّ "من الحاضرة إلى الدولة في الإسلام الأوّل"، الطبعة رقم 1، عن دار إقرأ (01/01/1986). ثم "مؤتمر الجابية" الذي انتقلت فيه الخلافة من السفيانيّين إلى المروانيّين في بني أمّيّة عن دار النهضة العربيّة (ط1 1985- ط2 1996). "الأمراء الأميّون الشعراء الأندلس- دراسة أدب السلطة"، الطبعة رقم 1، عن دار النهضة العربيّة 1987 (01/01/1994) لفت نظري في الطبعة الثالثة "الدولة العربيّة في أسبانية، من الفتح حتّى سقوط الخلافة" أنّ هناك تسعة شعراء من أصل 14 أميرًا ممّن حكموا الأندلس، عدا الأمراء غير الشعراء وهذا له علاقة بالمناخ الأندلسيّ. النقريّ في نفح الطيب يقول: "وللشعر عندهم حظّ عظيم حتّى وعندما يتحدّث عن الملوك".

ثم كتبنا "تاريخ بلاد الشام- إشكاليّة الموقع والدور في العصور الإسلاميّة"، الطبعة رقم 1، عن شركة المطبوعات 2002. إنّ الشام تكون قويّة عندما يتكامل الموقع مع الدور، حتّى الآن. ثمّ "الإمام عليّ في رؤية النهج ورواية التاريخ"، الطبعة رقم 1، عن دار بيسان (01/01/1999) طبعة ثانية 2005 وثالثة 2009 ونال جائزة مهرجان الإمام عليّ في إيران سنة 2000. ثمّ "قرأت أصواتهم في الدويّ- أوراق جنونيّة"، الطبعة رقم 1، (01/01/2000)عن دار المؤرّخ العربيّ. ثم "ثورة الحسين حدثًا وإشكاليّة"، الطبعة رقم 1، (01/11/2001) شركة المطبوعات للتوزيع والنشر. قراءة للثورة، الشيعة يتحّدثون عن كربلاء ولا يتحدّثون عن الثورة وهذا برأيي إساءة لهذا

الموضوع وهذا الكتاب الوحيد الذي وقّعته بإصرار من دار النشر لأنّني أتفادى التوقيع.



د. إبراهيم بيضون يلقي كلمة في ذكرى أربعين الشاعر إبراهيم شرارة في الثانوية العاملية عام 1983

ثم صدر لي كتاب طريف "الصراع على الشام، في عصر الأيّوبيّين والمماليك، تحدّيات الهويّة وانقلابيّة التاريخ"، الطبعة رقم 1، (01/06/2006) عن دار بيسان للنشر والتوزيع. إنّ الشام كانت في قلب الأحداث الكبرى، من حطّين إلى عنجلوت. عادة الكتّاب والمؤرّخون يبرزون "حطّين"، طبعًا هي معركة عظيمة، لكن هي أدنى، بلا شكّ، من "عنجلوت" التي خاضها المماليك ضدّ المغول. لولا هذه المعركة لما بقي عرب وإسلام في المنطقة. ثمّ "مسائل المنهج في الكتابة التاريخيّة العربيّة"، الطبعة رقم 1، دار المؤرّخ العربي (01/01/1995).

و"مسائل المنهج في التاريخ الإسلاميّ، إشكاليّات ونماذج" 2009 عن دار المؤرّخ العربيّ، وهو عن مناهج المؤرّخين. الذين كتبوا في هذا المجال أرّخوا للمؤرّخين لكن أنا تحدّثت عن مناهج المؤرّخين انتهاءً بابن خلدون. هناك كتاب شاركت في ترجمته وصياغته كانت صياغتي هو كتاب طريف جدًّا لمؤرّخ فرنسيّ هو رينيه غروسي بعنوان "ملحمة الحروب الصليبيّة" هذا الكتاب صدر 2007 يتحدّث بنفس ملحميّ عن الفروسيّة عند العرب وعند الصليبيّين ويثير فضائح البلاط الصليبيّ من دون أيّ تردّد وفرادته في أحداثه ولكن ينطوي على مادّة تاريخيّة مهمّة.

وأين الجنوب؟

الجنوب كان في الوعي التاريخيّ والثقافي والاجتماعيّ والعاطفيّ، أو الذي يعبّر عنه بصورة مباشرة هو كتاب "قرأت أصواتهم في الدويّ" وهي نصوص أدبيّة قريبة من الشعر، صدر الكتاب سنة 2000. في عام التحرير؛ إلى مساهمات في مناسبات منبريّة وندوات وغير ذلك؛ الجنوب عندما كنت في المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، كنت يوميًّا أمارسه وأتحدّث عنه في كلّ مجال من المجالات.

بين الولادة والمدرسة والرحيل نحو بيروت ثمّ الانقطاع بسبب الاحتلال الإسرائيليّ، كيف كانت تتقلّب هذه العاطفة أو تتبدّل؟

سوف تتفاجأ أنّني لم انقطع عن الجنوب خلال الاحتلال، وكنت أذهب مع أسرتي وأبنائي الصغار، في حينه، في الثمانينات، ونجتاز المعبر ونتحدّى الخوف، وكانت الطريق محفوفة بالتعب والمخاطر، كان أولادي يحبّون الجنوب، وكنّا نذهب غالبًا إلى الخيام وهي بلدة زوجتي؛ ولأن الخيام كانت أكثر هدوءًا من بنت جبيل، أمنيًّا؛ يعني الزمرة التي حكمت بنت جبيل كانت زمرة مخيفة وكان لا بدّ من الذهاب إلى بنت جبيل ولكن من الباب الخلفيّ. وكنت أميل إلى عدم الاحتكاك بأيّ أحد من العملاء أو حتّى أتفادى أن يراني أحد منهم.

"

لم انقطع عن الجنوب خلال الاحتلال، وكنت أذهب مع أسرتي وأبنائي الصغار، في حينه، في الثمانينات، ونجتاز المعبر ونتحدّى الخوف، وكانت الطريق محفوفة بالتعب والمخاطر، كان أولادي يحبّون الجنوب، وكنّا نذهب غالبًا إلى الخيام وهي

بلدة زوجتي؛ ولأن الخيام كانت أكثر هدوءًا من بنت جبيل

فذات يوم بعد عودتي، كنّا عند الأستاذ طلال سلمان والصديق الدكتور كامل مهنا، وكان يعرف أنّني عائد لتوّي من الجنوب، فقال لي: إنّنا سننشر ملفًّا عن الشريط الحدوديّ، فأتمنّى أن تقدّم لهذا الملف وبالفعل كتبت مقالة نشرت نصف صفحة من "السفير"، وفي اليوم التالي بدئ بنشر الملف بعنوان "المشي فوق الذكريات؛ من الخيام إلى بنت جبيل مرورًا بشبعا" هذه المقالة أثّرت كثيرًا في المقيمين خصوصًا. معظم الأحيان كان صديقنا الأستاذ طلال يكلّفني بمثل ذلك؛ مثلًا قال مرّة أخبرنا عن الانتخابات في الجنوب، ربّما العام 1996، وكيف ينظرون إلى الانتخابات، فكتبت يومها مقالة بعنوان: "تغيّرت برمّتها التقاليد" كيف كانت الانتخابات وكيف صار الناس كأن لا يعنيهم شيئًا، مرشّحهم الوحيد هو اليأس.

هذا الكلام يفتح لسؤال: ألا ترى أنّ الاحتلال فعل فعله في بنت جبيل، فلم تعد تلك الحلقة الثقافيّة أو هذه الحلقة السياسيّة ولم يعد ذاك الجوّ الذي كان سائدًا؟

لا شكّ كونك جنوبيًّا، هذه الحواضر كانت تعجّ بالشعر والشعراء من النبطية إلى بنت جبيل، فالخيام فشقراء وحتّى عيناثا القرية الصغيرة؛ اليوم بهتت كثيرًا هذه الصورة ومن الصعب أن تجد أحدًا يحدّثك عن الشعر أو يلقي أمامك بيتًا من قصيدة؛ إلّا قليلون جدًّا حينما تقصدهم، لأجل هذه الغاية في بنت جبيل أو في عيناثا أحيانًا، ولكن تبقى بنت جبيل وربّما بلدة شقراء، مفعمة إلى حدّ ما بشيء من المزاج أو النفس الثقافيّ. نلمسه على الأقلّ في المناسبات. وربّما تحدث مرّة في الشهر، في بنت جبيل، نشارك في بعضها، ولكنّ مشاركاتي قليلة جدًّا. أتعمّد عدم المشاركة وهناك أناس يستهلكون أنفسهم في هذا المجال.

بيروت؟ يعني خطفت الضوء، والذين لهم باعهم في هذا المجال يعيشون في بيروت. حتى الذين يحرّكون هذا المناخ في بنت جبيل على سبيل المثال، هم في بيروت وليسوا في بنت جبيل.

وماذا أعطتك بيروت؟

أوّلًا: مع الاعتذار لبيروت ولأهل بيروت، أنا لا أحبّ هذه المدينة. عندما أذهب إلى الجنوب واصل إلى خلدة، أحسّ أنّني انطلقت، أنّني كنت سجينًا وأُطلق سراحي، ولكن، بيروت هي المركز وهي الموقع وهي الضوء ومن دون بيروت لا شكّ أنّني لا كنت مؤرّخًا ربّما ولا كنت في هذا الموقع الذي أنا فيه. في إحدى المرّات كنت أستاذًا زائرًا في جامعة اليرموك وكانت الحرب على أشدّها في بيروت، هذا في الثمانينيّات، أظن 1984؛ أحد الأصدقاء الزملاء في جامعة اليرموك، ألحّ عليّ بالبقاء "ولا تذهب إلى بيروت والحرب قائمة، فلماذا لا تقضي وقتًا هنا والكلّ أنت على صداقة معهم وغيره، ونحن نحتاج إليك". فقلت له بالحرف الواحد: يا أخي بيروت هي بيروت على رغم الحرب. هو أخذها على الطريقة العربيّة وقال لي: "الحجر مطرحه قنطاري". قلت: إن هذا الكلام فيه شيء من الصحّة، ولكن، لو كنت في عمّان لقمت بدور يشبه دوري في بيروت، ولكن لن يكون في أصالة الدور الذي أنا فيه بلبنان.



في بنت جبيل وخارج بنت جبيل، كنت في هذا الجو اليساريّ والحزبيّ المحموم، المعروف أنّك لم تنتظم، فلماذا وأنت في هذا الجو؟

هناك تجربة قصيرة جدًّا، لا تكاد تذكر، هي أنّني في بدء شبابي أو في بدء الصبا، انتظمت في حركة القوميّين العرب وكان المحرّض والقائد حينذاك، المرحوم الفنّان عدنان شرارة الذي توفّي من وقت قصير ولكن عندما انصرف هو عن بنت جبيل، وانصرفنا نحن إلى دراساتنا وأعمالنا، هذه التجربة لم تعد قائمة، وبالتالي أصبح عندي الشعور والانتماء هما الأساس. لم أتخلّ حتى الآن عن هذا الإحساس القوميّ والذي تنبض به حتّى دراساتي التاريخيّة.

المرحلة التي كنت أنا مهتمًّا بها القرن الأوّل الهجريّ، ثم بعد اكتسابي التجربة، هو المنهج، فبدأت أوسّع الدوائر، حتّى أنّني كتبت في التاريخ الحديث، والتاريخ الأندلسيّ والدولة العربيّة في أسبانيا والأمراء الشعراء في الأندلس، إنّما في البداية، طبيعة الاختصاص، كان يقودني إلى هذه المساحة؛ والأمويّون لم أكن أميل إليهم يومًا ما، لست من موقعي أو انتمائي المذهبي، إنّما كمؤرّخ، أرى أنّ الأمويّين أفسدوا المسار التاريخيّ الإسلاميّ وأفسدوا مسار الخلافة. حتّى إن هذا المشروع الذي كان يتولّاه عمر بن الخطّاب، وعن عليّ، كان هناك تعمّد في إبعاده عن الخلافة، وكانوا حتّى الصحابة، يتورّعون ويدّعون معه لأنّهم يعرفون كما وصفه عمر "سيحملهم على طريقة هي الحقّ".

هؤلاء تجّار ولا يتناسب معهم كثيرًا أن يأتي إلى الخلافة شخصيّة مثل الإمام علي، ولكن، حتّى عمر، أشك بالرواية التي ترى أنّ الذي قتله هو القاتل الفعليّ. إنّما هناك مؤامرة وهناك فريق شارك مباشرة أو كان مضلّلًا وضالعًا في هذه العمليّة ولم يعد عمر بالنسبة إليهم، يمثّل طموحاتهم. حتّى إن هناك قولًا أو رواية جاء فيها: لم يزل عمر حتّى ملّته قريش، وكان قد حاصرهم في المدينة. من هم؟ الصحابة. كبار الصحابة، الذين يقال إنّهم يبشّرون بالجنّة، وأنا لم أعرف من بشّرهم بذلك. وكان قد حاصرهم بالمدينة ويقول: إنّ أخشى ما أخشاه على هذه الأمّة هو انتشارهم في البلاد. هم النخبة وماضيهم كانوا تجّارًا، فمجيئهم إلى العراق خصوصًا، أكيد سيسيء إلى الإسلام من خلال هذه النماذج؛ التي هي من النخب.

لماذا الابتعاد في التأريخ عن جبل عامل؟

جبل عامل كنت أراوده، إذا جاز التعبير؛ لم أتخلّ عنه نهائيًّا ولكن شاركت في بعض الندوات عن جبل عامل وكنت أطارحه أدبًا أكثر من التاريخ. لكنّ جبل

عامل من الصعب أن تخرج منه بمقاربات مهمّة باتّجاه الحقائق. هناك من اشتغل عليه وأصاب أهدافًا أو أعمالًا يمكن أن ينوّه بها، وهناك من كتب وكرّر من دون أن يحقّق شيئًا جديدًا. وهذا يعود إلى ضآلة المادّة عن جبل عامل. جبل عامل تعرّض لنكبات وغيرها، هناك أوراق قليلة جدًّا على صفحاته، وأعتقد أنّ الشيخ جعفر المهاجر وإن كان يميل إلى الاختصار أحيانًا، وكان قاضيًا شرعيًّا وهو ما زال يعمل على هذه المساحة، هو أفضل من قدّم في هذا السبيل.

ما الجديد الذي يشتغله الدكتور إبراهيم بيضون؟

توقّفت منذ شهر أو شهرين لانهماكي في الجامعة الإسلاميّة، وهناك أعباء لا بدّ من التفرّغ لها، مع أنّني أكتب يوميًّا وهناك مجلّة نعدّ لإصدارها عن الجامعة؛ سيكون لها حظّ منّي في الفترة المقبلة، "مجلة الجامعة الإسلاميّة في لبنان". وأنا أكتب في مجلّة العربيّ "التجلّيات الحنيفيّة في مكّة قبل الإسلام" آخر مقالة. بعض الأفكار الجديدة كما أزعم، غير المطروقة سابقًا، هذه المرحلة التي رهصت بالإسلام. وأعدّ مراجعة عن كتاب لمجلّة العربيّ "أسبانيا في تاريخها" عن كتاب مهمّ لمؤرّخ إسبانيّ. أنت سألتني عن الكتب ولم تسألني عن الأبحاث؛ لسنا في صدد رصدها.

كيف تجزّي الوقت في بيروت؟

أنا، عادة، من الذين ينهضون باكرًا؛ وأمشي ثلاث مرّات في الأسبوع كما يمشي الناس على الطريق البحريّ. ثمّ أكتب أو أقرأ على الأقلّ ثلاث ساعات وكنت أكتب أكثر في الأوّل، أحضر نفس أركيلة من التنباك، إلى جانب القهوة وأستغرق وهي عادة من الثمانييّنات تعلّمتها في الأردنّ، حينما انقطعت من الدخان وكنت أدخن "جيتان" ولا يوجد جيتان في الأردنّ وعندهم تنباك من الصنف الجيّد، ودرجت على ذلك، ولكنّني أمارس هذه العادة مرّة واحدة في اليوم؛ وأستمتع بها كثيرًا، أستمتع بالكتابة وأنا أدخّنها، وهي أجمل اللحظات في يومي. بعدها أذهب إلى الجامعة إذا كان عندي دوام في الجامعة، وإن لم يكن، أقضي قبل الظهر تقريبًا، في جوّ المطالعة والدراسة. بعد الظهر يخفّ نشاطي كثيرًا. كنت أتردّد كثيرًا على استراحة ومقهى "الروضة" قبل أن يقصدها قاصدوها الآن.

عندما كان المجلس في أوجّه وكنت فاعلًا في المجلس، وفي وقت من الأوقات كنت أمين سر اتّحاد الكتّاب اللبنانيّين، وكانت علينا متطلّبات المشاركة في ندوات وإصدار بيانات وتسجيل مواقف، سواء في الاتّحاد أو في المجلس الثقافيّ، فكنت يوميًّا لفترة غير قصيرة، أقوم بإيصال أولادي إلى المدرسة ثمّ أتابع طريقي إلى الروضة، وعدّتي معي، تكون الأرجيلة والقهوة وأبدأ سواء بما يتعلّق بالمجلس الثقافيّ أو الاتّحاد، أو بما يتعلّق بعملي الخاص؛ خصوصًا على مستوى المقالات والأعمال الخفيفة.

المجلس الثقافي، لا زلت معه، ولكنّني لست عضوًا في الهيئة الإداريّة وإنّما أنا صديق للأستاذ حبيب صادق وأنا على تواصل دائم معه. وإذا كان هناك نشاط يهمّني أذهب أو يتّصل هو ويذكّرني، ما زلت أعتبر نفسي جزءًا من أسرة المجلس. أنا أودّ أن أقول أنّني سعدت بهذه الجلسة، الحديث الذي يعود إلى الماضي والجنوب أسعدني كثيرًا وكل الشكر.

